الرجل والمرأة

مقابلة عامة بينهما

قامت في الزمان الاخير صيحة نسائية تنادي بمحو دائرة الحصر التي حصر النساء ضمنها منذ امد بعيد وحلّ الاغلال التي غلّت بها ايديهن اسوة بالرجال لهنّ ما لهم وعليهنّ ما عليهم

وقد أغارت فئة من الرجال هذه الصيحة اذناً صاغية .اما الفئة الاخرى وهي الكبرى فاغارتها اذناً صماء وعندها لذلك سببان : الاول ان تكسير القيود التي تقيد النساء الآن يفضي الى عواقب اجتماعية وادبية غير محمودة . والثاني ان المرأة لا تصلح بطبيعة خلقها لبعض الاعمال التي اختصّ الرجال انفسهم بها . وغنيٌّ عن البيان ان الاعتبارات التي تقع تحت السبب الاول هي خارج دائرة العلم بالمرة لان ما يعد محموداً من الوجهة الاجتماعية او الادبية يتوقف على نظر الفرد لا على قضية علمية معينة . اما السبب الثاني فواقع ضمن دائرة البحث العلميّ فلنبحث الآن فيما اذا كان في طبيعة المرأة ما يحول دون عمل بعض الاعمال التي يعملها الرجل. ولا ينكر ان بعض العلماء جزموا جزماً باتاً بان المرأة دون الرجل استعداداً بحكم فطرتها وفي طليعتهم الاستاذ سدويك الاميركي ولكن الانصاف يقضي بالقول انهم انما بنوا احكامهم على التقليد لا العلم

واول ما نفتتح به هذا البحث ان معظم السبب في الاعتقاد الشائع بان المرأة دون الرجل كفاءة في بعض الاعمال كونها لم تعملها فيما مضى ولا تعملها الآن . فاذا مالت الى عمل احدها عدّوا هذا الميل منها غير طبيعيّ وزعموا انها تخالف به فطرتها . ولكن هذا الزعم ليس من المنطق في شيء . اذ لا يبعد ان يكون بين الاسباب التي حالت دون امتناع المرأة عن عمل هذا العمل او احتراف هذه الحرفة من حرف الرجال في الماضي اسباب تاريخية لا فطرية بحتة . ولنضرب على ذلك مثلاً حرفة العمل على الالة الكاتبة . فان معظم هذه الحرفة اوكلها تقريباً في يد النساء في اوربا واميركا وكانت في يد الرجال فيما مرّ . وليس فينا عاقل يقول ان سبب هذا الانقلاب من الشيء الى ضده انقلاب في طبيعة

الرجل والمرأة صارت به المرأة صالحة لما لم تكن تصلح له والرجل غير صالح لما كان يصلح لهُ

دائرة المرأة

مما يجب التنبه لهُ عند الكلام على هذا الموضوع ان انصار المرأة وخصومها ضلوا فيه على السواء بقيين انصارها ثقة كثيرة تعتقد بانهُ أتى على النوع الانساني حين من الدهر كانت المرأة فيهِ صاحبة الكلمة الاولى والنفوذ الاول وكان الرجل في المحل الثاني . وقد سموا هذا الدور دور الامومة اي سيادة الام . ثم دار بالمرأة دولاب الدهر فهبطت وحلّ الرجل محلها . وعليهِ يذهبون بناء على هذا الاعتقاد الى ان انحطاط منزلة المرأة في عصرنا هذا عن منزلة الرجل ليس سببهُ خلقيًّا فطريًّا بل هو نتيجة تفوق الرجل اجتماعيًّا وهذا التفوق اتفاقي كما رأيت

على ان هذا الرأي سفسطة اذ لم يقم ثمة دليل يدلُّ على حقيقة وجود الدور الذي زعم انصار المرأة انها كانت الحاكمة السائدة فيهِ. وواقع الامر ان كثيراً من القبائل الأولية اتبعت نظام الامومة اي الانتساب الى الام على الاطلاق في حين ان قبائل كثيرة غيرها اتبعت نظام الابوة اي الانتساب الى الاب فقط دون الام. على ان هنالك قبائل كثيرة لم تجرِ على احد هذين النظامين وليس عندنا شاهد فرد على ان قبيلة من القبائل جرت على نظام الامومة قبل جريها على نظام الابوة . فلا يصحُّ والحالة هذه ان يقال ان نظام الامومة كان في عصر مضى هو النظام الشائع في المجتمع الانساني . ولو فرض انهُ كان كذلك ما افاد ذلك هذا الفرض فائدة يصحُّ السكوت عليها . اذ الامومة اي الانتساب الى الام شيء وسيادة المرأة شيء آخر وشتان بين الامرين . ففي كولومبيا الانكليزية مثلاً تجد الاهالي الاصليين يجرون على نظام الامومة في الاسم والارث فيسمّي الرجل باسم امهِ ويرث تركة خالهِ لا عمهِ ولكنَّ المرأة عندهم ثانية الرجل في نظامهم الاجتماعي على حقارتهِ

هذا هو النظام الشائع بين الناس وما شذَّ عنهُ فنادر لا يقاس عليهِ . مثال ذلك قبيلة الاروكوار من هنود اميركا فانهم ينتسبون الى الامّ . والمرأة عندهم تدير دفة الشؤون الاجتماعية والسياسية دون الرجل

على ان المسئلة الجوهرية التي يراد تحقيقها هي بيان الاشواط التي جرت المرأة فيها في اثناء وامكنة مختلفة والاعمال التي عملتها اما وحدها او مشاركة للرجل فيها. فمن القبيل الاول تربية الاولاد وقد اختصت بها بداعي الضرورة البيولوجية(١) وهذه لمهمة وكون المرأة اضعف بنية من الرجل منعاها من الحرب والقنص. وجميع الدلائل تدل على انهُ ليس في فطرة المرأة غير ما تقدم ما يمنعها من مشاركة الرجل في سائر الاعمال والاشغال. ففي كل قبيلة من قبائل البشر تقسم الاعمال بين الرجال والنساء تقسيماً لا يقتصر على ما تتطلبهُ تربية الاطفال وما بين الرجل والمرأة من الاختلاف في القوة البدنية. وهذا التقسيم يختلف باختلاف القبائل فبين قبيلة الهوبي مثلاً يحتكر الرجال صناعة الحياكة في حين ان النساء يحتكرن هذه الصناعة نفسها بين قبيلة التفاجو(٢) والمفهوم ان التفاجو تعلمت هذه الصناعة من الهوبي ويكاد عمل الفخار بين قبائل اميركا الشمالية يكون من صناعات النساء دون الرجال بخلاف ما هي الحال في افريقية حيث يصنع الرجال الفخار الا فيما ندر. والنساء يدبغن الجلود بين قبيلة هنود الردسكنز ويحرثن الارض ويزرعنها بين قبيلة هنود الاروكواز في حين ان الرجال هم الفلاحون بين هنود قبيلة بويبلو. وترى الرجال بين هنود قبائل السهول في اميركا ينقشون الملابس ويصورون عليها صور الاشياء الحقيقية في حين ان نساءهم ينقشن اجربة الجلد ويرسمون عليها الاشكال الهندسية

وحيثما التفت المرء يجد المرأة قسيمة الرجل في اعمال التربية والتهذيب ولها فيها اليد الطولى. ولا تنحصر اعمالها في دائرة المنزل بل تتعداها الى سائر الاعمال المعاشية وتتولى فنوناً لا تستغني القبائل الاولية عنها في بداوة معيشتها وقد لا تنفصل هذه الصناعات كل الانفصال عن المهام المنزلية كما هو الحال في المعيشة الحضرية. فان الفلاحة الافريقية تركس الارض بعودها وطفلها على ظهرها. والدباغة الهندية تكشط الجلود وتدخنها وتصنع الملابس وتضفر ريش القنافذ في خلال انسجتها المنزلية

---

(١) اي ما يتعلق بولادة الاطفال وتربيتهم

(٢) الهوبي والتفاجو قبيلتان من قبائل هنود اميركا الشمالية

والباحث يجد ان الاعمال التي تعملها المرأة خارج دائرة واجباتها البيولوجية انما فرضت بها العادات لا غير. وليس في تاريخ طبائع الخلق ما يدلّ على ان استخدام المرأة بالسياسة كما بين قبيلة الاروكواز او منعها بالمرة من مشاركة الرجال في اعمالهم العادية كما بين بعض قبائل استراليا — هما امران طبيعيان. ولا ما يبين ان المرأة اكثر ملاءمة من الرجل او اقلّ لعمل النجار او الحياكة او الدباغة او الاشتغال بالفنون او نظم الشعر الى غير ذلك وجيد ما هنالك انهُ يرينا ان بين وظائف البشر المختلفة فرقاً عظيماً في توزيع الاعمال بين الرجال والنساء

ونقابل بين الرجل والمرأة بيولوجياً وسيكولوجياً لنرى هل المرأة بطبيعة خلقها وتركيبها احطّ من الرجل بدنياً وعقلياً بوجه من الوجوه

المقابلة بينهما بدنياً

قام سنة ١٨٨٤ عالم اسمهُ بول البرجتس حاول ان يبين ان المرأة اقرب من الرجل الى التزود في تسعة اوجه من تركيب جسمها. فعارضهُ عالم آخر اسمهُ بول بارتز وسفّه رأيهُ هذا بقوله ان اربعة اوجه من التسعة المشار اليها خطأ او مشكوك فيها. وواحداً لا علاقة لهُ بالموضوع. واربعة ليست بذات شأن يذكر في تأييد هذا الرأي. واستطرد من ذلك الى القول ان ابحث في تفضيل الذكر على الانثى او الانثى على الذكر في جميع اصناف ذوات الثدي بحث عقيم. ولو كان مجرّد القول ينفع في اثبات رأي دون رأي لقلت ان الرجل اقرب من المرأة الى القرد لانهُ اشبه بهِ منها من وجهين ظاهرين وهما قوة المضغ وكبر الوجه. وقد قال الاستاذ شولتس ان المرأة اقرب شبهاً من الرجل بالولد ولكنهُ لم يستنتج من ذلك ان الرجل ارفع منها تشريحياً. نعم ان المرأة تشبه في شكل جسمها الطفل المولود حديثاً من حيث طول الجذع وقصر الساقين وكبر الرأس كما قال شولتس ولكنهُ وقف عند هذا القول ولم يستنتج منهُ شيئاً يفضل الرجل على المرأة بل لو شاء لاستنتج منهُ ان الرجل ادنى منزلة من المرأة لا ارفع منها لانهُ بطول ساقيهِ وصغر رأسهِ اشبه بالقرد من المرأة. ومن رأيهِ ان الرجل والمرأة مختلفان في بنيتيهما ولكنهما متساويان بيولوجياً او في الكمال البيولوجي كما قال

ثقل الدماغ

ولا يزال بعض العلماء يحاولون بناء العلاق والقصور على مسئلة صغر دماغ المرأة بالنسبة الى دماغ الرجل استنداداً الى قول شائع وهو انهُ كلما زاد ثقل الدماغ زادت قوة الادراك وبالعكس . ولنبحث في هذه المسئلة الآن فنقول :

لا ريب ان الثقل « المطلق » لدماغ الرجل اعظم من ثقل دماغ المرأة في كل شعب من الشعوب التي قيست ادمغتها . ففي الانكليز مثلاً وجد ان متوسط ثقل دماغ الرجل في عدد كثير من الرجال وزنت ادمغتهم ١٣٢٥ جراماً ومتوسط ثقل دماغ المرأة ١١٨٣ . ومثل ثقل الدماغ سعة الجمجمة . فقد وجد ان متوسط سعة الجمجمة في ١٠٠ رجل باقاربي ١٥٠٣ سنتمترات مكعبة . وفي ١٠٠ امرأة ١٣٣٥ سنتمتراً مكعباً

ومآل ذلك ان حجم دماغ الرجل المطلق يزيد على حجم دماغ المرأة . هذا صحيح ومثلهُ في الصحة ان الحجم المطلق لدماغ الفيل او الحوت يزيد على حجم دماغ الرجل . فان ثقل دماغ الفيل ٤١٠٠ جرام الى ٤٨٠٠ والحوت ١٩٠٠ الى ٢٨٠٠ . فمن الجهل والحالة هذه ان يعلق شأن كبير على حجم الدماغ المطلق في المقابلة بين ادراك الرجل والمرأة ولاسيما انهُ ثبت ان ادمغة بعض كبار العلماء دون المتوسط بكثير في ثقلها وادمغة بعض متوسطي الفهم فوق المتوسط بكثير . فقد وزن دماغ رجل عادي الفهم فبلغ ٩٠٠ جرام ووزن دماغ آخر مثله فهماً فبلغ ٢٠٠٠ جرام

واذا انتقلنا من البحث في ثقل الدماغ « المطلق » ومن مقابلة ادراك الرجل بادراك المرأة بناء عليهِ الى البحث في ثقل الدماغ النسبي اي ثقلهُ بالنسبة الى ثقل الجسم كلهِ وجدنا ان دماغ المرأة النسبي اثقل من دماغ الرجل . وبعبارة اخرى ان نسبة ثقل جسم الرجل الى ثقل جسم المرأة كنسبة ١٠٠ الى ٨٣ في حين ان ثقل دماغ الرجل الى ثقل دماغ المرأة كنسبة ١٠٠ الى ٩٠ . وقد درس شولتس نسبة ثقل الدماغ والجسم في الرجل والمرأة بناء على قياس كثير من العلماء فوجد ان الفرق في كل حال مضاد لدعوى الرجل على المرأة . مثال ذلك ان شفالب جعل متوسط ثقل دماغ الرجل ١٣٧٥ جراماً والمرأة ١٢٤٥ جراماً . وثقل جسم

الرجل ٦٥٠٠٠٠ جرام والمرأة ٥٥٠٠٠٠ جرام فالنسبة ١ من ٤٧٠٤٧ في الرجل و١ من ٤٤٠١٧ في المرأة

المقابلة في الادراك

يقول قائل اذا كان ذلك كذلك فهل يصح الاستنتاج ان المرأة اسمى ادراكاً من الرجل . والجواب لا بالمقابلة مع سائر العالم الحيواني . والاَّ لوجب ان يكون المجرذ ارقى من الانسان والخلد الاوربي تالي الرجل بينه وبين المرأة وان يكون الفيل في ادنى دركات الفهم لان ثقل دماغه النسبي صغير جداً وهو ليس كذلك اذ المعروف انهُ ارقى فهماً من الجرذ والخلد

على ان المقابلة بناء على هذا الاساس لا تخلو من فائدة فهي ترينا انهُ اذا كان حيوانان متساويين ثقلاً فان الاعلى منهما في السلم الحيواني اثقل دماغاً بالنسبة الى الاخر . واذ تشابه حيوانان في تركيب الجسم كأن يكونا من نوع واحد وتشابها في قوة الفهم كالاسد والهر مثلاً فان الاصغر منهما جسماً اثقل دماغاً نسبة الى الاخر . وبناء على هذه القضية الاخيرة فسر كون دماغ المرأة اثقل من دماغ الرجل نسبياً

اذاً فما هي علاقة ثقل الدماغ بالادراك في الرجل والمرأة. جهد ما يقال جواباً عن هذا السؤال ان تفوق الرجل على المرأة او المرأة عليهِ لا يزال بلا برهان . نعم ان هناك علاقة بين الدماغ والادراك ولكنها ليست بمعنى ان حجم الدماغ يعين مقدار الفهم والادراك على التمام . وقد لخص بارتلز هذا البحث تلخيصاً نراهُ قرين الصواب دون غيره حيث قال : كلُّ ما يستنتج من ثقل الدماغ في الرجل والمرأة انهما متساويان عقلاً وادراكاً على ما نظهر

المقابلة بينهم عقليا

ولننظر الآن الى المسئلة من الوجهة العقلية وبعبارة اخرى ما هو حكم علماء الفلسفة العقلية في الرجل والمرأة من حيث قوة العقل . فقد كان المذهب السائد قبلاً ان المرأة دنى من الرجل عقلاً على وجه عام وانهُ لو امكن تعيين متوسط لعقول الرجال كلهم ولعقول النساء كلهن لوجد ان الرجل ارقى عقلاً من المرأة من هذا القبيل . ولكن التجربة الدقيقة واختبار الشاب والشابة في المدارس

حملا كثيرين من العلماء على نقض المذهب المتيق المذكور آنفاً من ان المرأة احط عقلاً من الرجل اجمالاً . وخلاصة ما قال به فريق منهم بناء على امتحانهم ان المرأة اعظم اجتهاداً ومواظبة على عملها من الرجل ولكن تعوزها قوة الابتكار والابداع واستقلال الفكر . وقد خالفهم بول بارتز فارتأى ان المرأة المتوسطة مثل الرجل المتوسط في جميع اتجاهات الفكر سواء كانت لعب الشطرنج او السياسة او العلم او البورصة اوسائر الاشغال التي تتوقف في الاكثر على العقل . وانما يسبقها الرجل في الميادين التي يبنى التفوق فيها على الشخصية البحتة فهو اقدر منها زعيم جمهور او رئيس سفينة او شاعراً او طبيباً او معلماً او مديراً للصبيان في المدارس وما شاكل ذلك

ولكن فوريل خالف بارتز فقال ان الرجل والمرأة متساويان في العواطف والرجل اسمى عقلاً والمرأة اسمى قوة ارادة

ومنذ عهد غير بعيد بعث البروفسر سدويك الاميركي يستفتي اساتذة الجامعات الاميركية في اي الفريقين ارجح عقلاً في زعمهم الطلبة ام الطالبات . وطلب منهم جواب هذا الاستفتاء . فاجاب كثيرون انهم لا يرون الطالبات دون الطلبة في المقدرة العقلية

ومع هذا كله لا مناص للباحث الحالي من الغرض من التسليم بان المرأة قصرت عن الرجل في ميدان الاعمال العقلية بشهادة التاريخ . ويحاول انصار المرأة تعليل ذلك بقولهم ان الرجل اكثر شروداً عن المتوسط من المرأة . اي ان الرجال الذين فاقوا النساء في هذه الحلبة هم من الشواذ الذين لا يبنى عليهم حكم وليسوا من القاعدة

يقابل ذلك ما ذهب اليه العالم مكل في كتاب الفه منذ قرن في تشريح وباثولوجيا المقابلة . وقد استدل فيه بناء على اعتبارات باثولوجية ان المرأة اكثر شذوذاً من الرجل . قال « ولما كانت المرأة احط من الرجل وكان الشذوذ عرضاً من اعراض الانحطاط فاستدلالنا صحيح » . ومما يضحك انهُ لما صار الشذوذ فيما بعد يحسب بين العلماء من علامات التفوق حكم علماء التشريح والتاريخ الطبيعي بان الرجل اكثر شذوذاً في بناء جسمهِ من المرأة . اما العلماء الذين ذهبوا الى ان

النساء مساويات للرجال على المتوسط فقالوا الآن بناء على رغم من زعم ان الرجال اكثر شذوذاً من النساء في بناء اجسامهم انهم لا بدّ ان يكونوا اكثر شذوذاً كذلك في عقولهم وانهُ لا يبعد ان يكون هذا سبب تقصير المرأة عن الرجل في ميادين السبق العقلي

ولكن هذا المذهب مذهب كون الرجل اكثر بفطرته شذوذاً عن القاعدة من المرأة ليس له ما يؤيده علميًّا . فقد قال كارل بيرسن في كتاب «شذوذ الرجل والمرأة» انهُ ليس ثمة دليل يدلُّ على ان الرجل اكثر شذوذاً من المرأة بل الدلائل التي عندنا تدلُّ على ان المرأة اكثر شذوذاً منهُ بقليل . ودرس منتاغو وهولنورث اجسام الفي طفل بعيد ولادتهم فلم يجدوا فرقاً تشريحيًّا بين الذكور والاناث في هذا النظر . ومثل ذلك يقال عن الصفات العقلية فانهُ ليس هناك ما يثبت ان الرجل اكثر شذوذاً من المرأة في الصفات العقلية كما قال هولنورث . فالمذهب موجود والبرهان عليهِ معدوم

خلاصة المقابلة

خلاصة ما تقدم ان تضييق دائرة المرأة في اعمالها الاجتماعية بدعوى انها اعمال ليست صبيغية فيها لانها لم تتعودها انما اساسهُ جهل التاريخ وعلم طبائع الخلق . فان المرأة مساوية للرجل تشريحيًّا اي في تركيب جسمها . والرجل لا يفوقها في دماغهِ او قوة عقله . وكل انحسر جزر الاغراض القديمة التي كانت ولا تزال تصم عقول الناس عامة وطغى مدُّ البحث العلمي والامتحان العقليّ ظهر بأجلى بيان ان المتوسط العقلي فيهما واحد . وقد عزوا قلة النوابغ من النساء في جنب نوابغ الرجال الى كثرة شذوذ الرجال ولكن ليس هناك دليل علميّ على ان الرجل اكثر شذوذاً عن القاعدة من المرأة . اما قول من قال ان العادة المعروفة تمنع المرأة ان تتقن عملها كالرجل فقول لا يؤيدهُ برهان . وحكم العلم في عصرنا حكم سلبيّ وهو انهُ ليس ثمت اسباب عقلية تقضي بحصر دائرة سعي المرأة حصراً اصطناعيًّا بناء على كونها اقلّ اتقاناً لاعمالها من الرجل